

شعرية الانزياح في أدب الرافعي

*أ. عنتر رمضاني

جامعة غرداية، الجزائر.

البريد الإلكتروني: ramdani.antar@univ-ghardaia.dr

ملخص البحث

تندرج هذه الدراسة ضمن البحث في الشعرية، وبالتحديد شعرية النثر في أدب مصطفى صادق الرافعي، في كتابه (المساكين)، حيث تناولت شعرية الانزياح، وتكمن أهمية هذه الدراسة أولا في إثراء أدب الرافعي رحمه الله الذي عانى التهميش والإهمال كثيرا؛ لا لشيء سوى لأنه أديب إسلامي، لنبين أن الرافعي جعل من كتاب المساكين بلغته وأسلوبه عالما من الانزياحات اللغوية والتركيبيات السردية؛ تتميز بقدرة غريبة وبديعة، فغرابتها تنتج من طرقها موضوعات بسيطة عادية، فيلبسها ثوبا عميقا حتى لا تكاد تعثر على قارئها وبديعة في الوقت نفسه لأن الناتج منها يكون مؤثرا أعمق الأثر فيمن يقرأها ويستوعبها، وبين التعبير الأدبي الرصين والعمق الفكري والفلسفي بيني الرافعي صوره وأخيلته، إذ كان لتصويره روعه تميزه من تشبيهات واستعارات فضلا عن استخدامه (التشخيص والتجسيم) في التخيل، لتجد بعد ذلك التشبيه بأنواعه المتعددة أغزر مادة أعانت الرافعي في نسج صوره حيث كانت له الصدارة بعد الاستعارة والكناية في بيان الرافعي، ليجعل الرافعي من (المساكين) عالما لا ينضب من اللغة الشعرية التي يتفرد بها نثره.

Abstract :

This study is a research in poetry, specifically the poetic of prose in the literature of Mustafa Sadiq al-Rafi'i, in his book (The Miserable), where he addressed the most important topics: the poetics of displacement, narration, imagery and imagination. The importance of this study is first in enriching the literature Rafie who has been neglected too much because he is an Islamic writer. We intend to show that Rafie his book 'The Miserable' has used a specific language style and linguistic shifts and structures of narrative; characterized by strange and wonderful strength. It's strangeness produces simple subjects. In the same time it's creative because it results the

* المؤلف المرسل: أ. عنتر رمضاني ramdani.antar@univ-ghardaia.dr

most profound impact on the readers. Also the literary expression and the intellectual and philosophical depth builds the Rafi image and his imagination. The metaphor of the writer's magnificence distinguished from images and metaphors as well as the use of (diagnosis and embodiment) in the imagination, to find then the metaphor of the various types of the most heavy material that helped Rafi in weaving his image where he was a pioneer in metaphor and imagery. All this has made from Rafi's book (The Miserable) an inexhaustible world of the poetic language that is unique in his prose.

اللغة عالم فسيح، وفضاء بديع، يسبح الكتاب والشعراء فيه، للقبض على تآليف الألفاظ وبديع المعاني، ولا يزال البحث جارياً في أساليبها وخططها وقواعدها مفتوحاً، يقول رولان بارت: "مثلاً نسعى لاكتشاف ملكوت الفضاء، علينا اكتشاف ملكوت اللغة وربما كان هذان الكشفان أهم معالم هذا العصر"¹. اللغة عالم بديع وفضاء بارع يتفسح فيه الشاعر والكاتب، الناقد والأديب، فيتفياً ظلالتها الوارفة في معاني مفرداتها وتراكيبها، وينعم في بيائها وسحر تعبيرها، وإن من صور البراعة في البيان والابداع في التركيب أن يأتي الكاتب بمفردات تعبر عن المعاني بطريقة مبتكرة وموحية، فيها رمزية وإيجاء ولفت انتباه، بحيث تحصل معه ما يعرف بالمتعة الذهنية في الاستماع للكلمات أو النصوص بصورة عامة.

ومن أهم ما درسه وتبعه النقاد، الأسلوب أو طريقة الكتابة؛ فإن لكل منا أسلوباً خاصاً به، يتميز به عن الآخرين، ومردّد هذا إلى مجموعة من المؤهلات التي يكتسبها الكاتب أو الشاعر أو المبدع عموماً، وطريقة تعامله مع اللغة، ولعل من أبرز مظاهر الأسلوب ظاهرة الانزياح التي نالت قسطاً هاماً من الدراسات النقدية والأدبية الحديثة؛ باعتباره قضية أساسية في تشكيل جماليات

1 - أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م، ص 11.

النصوص الأدبية، وما له من صلة بالأساليب التي يتميز بها كل أديب أو كاتب. كما يعد من المصطلحات النقدية الوافدة على الثقافة العربية، وقد احتضنه النقد العربي بشيء من الاختلاف المفهومي والمصطلحي، وهو اختلاف في الثقافة الغربية قبل أن يصل إلى ثقافتنا العربية. غير أن حضوره في الدرس النقدي مشهود له في البحوث والدراسات والرسائل والمذكرات.

- مفهوم الانزياح لغة واصطلاحاً:

- مفهوم الانزياح لغة: الانزياح: مصدر للفعل المضارع "انزاح" أي ذهب وتباعد، فجاء في لسان العرب لابن منظور: "نَزَحَ: نَزَحَ الشيء ينزح نزحاً ونزوحاً: بَعُدَ، وشيء نَزَحٌ ونَزُوح نازح، أنشد ثعلب:

إن المذلة منزل نُزِح *** عن دار قومك، فاتركي شتمي

ونزحت الدار فهي تنزح نزوحاً إذا بعدت وقوم منازيح قال ابن سيده وقول أبي ذؤيب:

وصرح الموت عن غلب كأَنهم *** جرب، يدافعها الشاقي، منازيح

إنما هو جمع منزاح وهي التي تأتي إلى الماء عن بعد، ونزح به وأنزحه وبلد نازح، ووصل نازح:

بعيد، وفي حديث سطيح: عبد المسيح جاء من بلد نزح أي بعيد، فعيل بمعنى فاعل.

ونزح البئر ينزحها وينزحها نزحاً وأنزحها إذا استقى ما فيها حتى ينفذ، وقيل حتى يقل ماؤها.

ونزحت البئر ونكزت تنزح نزحاً ونزوحاً فهي نازح ونزوح ونزوح، نفذ ماؤها، قال الليث: والصواب

عندنا نزحت البئر إذا استقى ماؤها. وفي الحديث: أنه نزل الحديبية وهي نزح ونزحتها. لازم ومتعد،

ومنه حديث ابن المسيب قال لقتادة: ارحل عني فلقد نزحتني أي أنفذت ما عندي، وفي رواية

نزفتني¹. وانزاح القوم نزحت مياه آبارهم. والنزح: الماء الكدر.

1 - محمد بن مكرم بن علي (أبو الفضل) جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الإفريقي، لسان العرب، ج 48، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، ص 4393.

وقال الجوهري في الصحاح: نزحت البئر نزحا، استقيت ماءها كله، وبئر نزوح: قليلة الماء،
وركايًا نُزِحٌ، والنزح بالتحريك: البئر التي نزح أكثر مائها.
قال الراجز:

لا يستقي في النزح المضافوف *** إلا مدارات الغروب الجوف

ونزحت الدار نزوحاً: بعدت. وقال ابن فارس في مقاييسه: نزح: النون والزاء والحاء كلمة تدل
على بعد، ونزحت الدار نزوحاً: بعدت، وبلد نازح، ومنه نزح الماء، كأنه يباعد به عن قمر البئر،
يقال نزحت البئر: استقيت ماءها كله، وبئر نزوح، قليلة الماء وآبار نزح¹.

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر: نزح: نزح إلى/ نزح عن ينزح وينزح، نزحا
ونزوحاً فهو نازح والمفعول منزوح، نزح البئر ونحوها فرغها قل ماءها أو نفذ، نزحت الدموع عن
عيني، نزح الشخص عن دياره، أبعد عنه، نزحهم قهراً. نزح الشخص عن أرضه بعد عنها الشكان
النازحون عن ديارهم، نزح إلى العاصمة، انتقل سافر نزح من الريف إلى المدينة².

ومما نلاحظه على المعنى اللغوي لـ: "الانزياح" أن معنى الانزياح قد تعدى إلى مفاهيم متغايرة
فتارة: بمعنى: البعد وتارة بمعنى: الماء الكدر، وأخرى بمعنى: النفاذ. ومعنى الانتقال أيضاً أو السفر،
وهو المعنى المشتمل عليه في لفظ الانزياح. وهذا التباين مرده استعمال اللغة في العربية وتوظيفها في
معانيها المتعددة عبر ألفاظ معينة، فلفظ الانزياح شمل: البعد، الكدر، النفاذ أو قلة الماء، الانتقال
والسفر وكلها مستعملة في لغة العرب قديماً.

1 - أحمد (أبو الحسين) بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الخامس، دار
الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 418.

2 - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 2191
/2192.

- مفهوم الانزياح اصطلاحاً: والمعنى اللغوي حاضر في المعنى الاصطلاحي كون الانزياح خروجاً عما هو مألوف من التراكيب والصيغ التي نعبر عنها باللغة، وهذا ما نراه مع التعريف الاصطلاحي للانزياح فهو متعدد الصيغ، فقد أورد عبد السلام المسدي من تلك المصطلحات ذاكراً أمام كل واحد منها أصله الفرنسي وصاحبه، وذلك على النحو الآتي¹:

الانزياح l'ecart لفاليري الشناعة le scandale لبارت

التجاوز l'abus لفاليري الانتهاك le viol لكوهن

الانحراف la éviation سبيتزر / خرق السنن la violation des normes لتودوروف

الاختلال la distorsion لويليك و وارين اللحن l'incorrection لتودوروف

الإطاحة la subversion لباتيار العصيان la transgression لآراجون

المخالفة l'infraction لتيري التحريف l'altération لجماعة مو.

والمصطلحات والترجمات عديدة يرجع فيها إلى مصادرها²، ولا شك أن هذا الزخم الاصطلاحي والتعريفات للانزياح، تدل على أنه ظاهرة نالت سعة من الدرس، وموضوع له أهمية كبيرة إذا ما تعلق الحديث باللغة الأدبية أو الشعرية أو الابداعية.

● الانزياح في الدرس النقدي الغربي:

شغل مفهوم الانزياح الكثير من النقاد الغربيين منذ عصر الفلاسفة اليونان إلى عصرنا الحديث، يقول أرسطو: اللغة التي تنحو إلى الإغراب وتتفادى العبارات الشائعة هي اللغة الأدبية: "وجودة اللغة تكون في وضوحها، وعدم تبذرها، فالحقيقة أن أوضح الأساليب اللغوية، هو ما تألف من الكلمات الدارجة، ومن جهة أخرى فاللغة تصبح متميزة وبعيدة عن الركافة إذا ما استخدمت فيها

1 - أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ينظر المرجع، ص 31.

2 - ذكرها: أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية ك: العدول، الكسر، الغرابة ولتغريب، الأصالة، المفارقة وغيرها.

الكلمات غير المشاعة أو النادرة، والمجازية والمطولة وكل ما ابتعد عن وسائل التعبير الشائعة...¹. والانزياح خروج عن المؤلف من كلام العامة ليرقى مراقي الشعرية والأدبية، يقول فاليري: إن الأسلوب في جوهره انحراف عن قاعدة ما". ويقول أيضا: "إن كل عمل مكتوب، كل إنتاج من منتجات اللغة يحوي آثارا أو عناصر مميزة، لها خصائص سوف ندرسها، فعندما ينحرف الكلام انحرافا معنا عن التعبير المباشر ... وعندما يؤدي بنا هذا الانحراف إلى الانتباه بشكل ما إلى دنيا من العلاقات متميزة عن الواقع العملي الخالص، فإننا نرى إمكانية توسيع هذه الرقعة الفذة، ونشعر بأننا وضعنا يدنا على معدن كريم نابض بالحياة، قد يكون قادرا على التطور والنمو، وهو إذا ما تطور فعلا واستُخدِمَ ينشأ منه الشعر من حيث تأثيره الفني، ومعنى هذا أن على الشاعر أو الكاتب إذا ما كان يرغب أن يحمل اللغة على أن تقول ما لا يمكن أن تقوله بالطرق العادية فعليه أن يبني نظاما لغويا جديدا به يتشكل نمط من الدلالة جديد².

ويقترُ ليو سبيتزر: (على اعتبار أن النقد اعتبره أول من أتى بمصطلح الانحراف) أن الملامح الخاصة للعمل الفني، هي مجاوزة أسلوبية فردية وهي وسيلة للكلام الخاص وابتعاد عن الكلام العام، وكل انحراف عن المعدل في اللغة يعكس انحرافا في مجالات أخرى³.

فليو سبيتزر قد ربط بين نفسية الكاتب وعمله الأدبي، وتفسير ذلك حين قال عن نفسه: "إنه قد اعتاد عندما كان يطالع روايات فرنسية حديثة أن يضع خطا تحت عبارات لفتت انتباهه وبدأت

1 - أرشطوطاليس، فن الشعر ترجمة ابراهيم حمادة، مكتبة الانجلو المصرية، ص 179.

2 - أحمد محمد ويس، ينظر المرجع، ص 87.

3 - أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة، مصر، ص 38.

له منازحة انزياحا عن الاستعمال الشائع، ثم كان أن وجد بين معظم هذه العبارات نوعا من التلاقي، ومن ثم فقد راح يبحث عن أصل نفسي مشترك لهذه الانزياحات في نفس الكاتب¹.

والانزياح سمة فردية عند سببترز يتميز بالإبداعية التي تنعكس على اللغة هو الجانب الدلالي بالدرجة الأولى، على اعتبار أن لكل منا أفكارا ومضامين معنوية، وثقافة ووجدانا كلها تتبلور من خلال الانزياح الدلالي عبر الانزياح اللغوي كوسيلة وأداة، وهو ما انطلق منه "سببترز" إذ إن الإثارة الذهنية التي تنحرف عن المعتاد القياسي في حياتنا الذهنية، لا بد من أن يكون لها انحراف لغوي مرافق عن الاستعمال العادي².

وأما الانزياح عند "ريفاتير": فقد لقي تطورا جذريا على يديه³، وهو عنده - أي الانزياح -: خرق للقواعد حيناً، ولجوء إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر. كما أتى "ريفاتير" بتدارك ما انتقد على الانزياح، كمشكلة صعوبة تحديد النمط العادي الذي ينزاح عنه الأسلوب⁴.

أما عند جون كوهين فقد عده النقاد والدارسون أقربهم لمفهوم الانزياح، وقد أفرد لذلك كتاباً أسماه: بنية اللغة الشعرية، حين يقول: "إن الانزياح هو خرق لقانون اللغة، أي يمكن أن ندعوه كما تدعوه البلاغة القديمة، "صورة بلاغية" وهو وحده من يزود اللغة الشعرية بمضمونها الحقيقي⁵، وهو الطريقة في الكلام التي تكون بعيدة عن الطرق الطبيعية والعادية، أي اعتبارها انزياحات لغوية. والشعرية هنا ترتبط بالأعمال الإبداعية الأدبية التي ترقى عن النصوص العادية.

1 - أحمد محمد ويس، ينظر المرجع، ص 88.

2 - الانزياح الدلالي في الألفاظ العربية، معجم العين نموذجاً، ماجستير (صونيا سارة كرميش) إشراف يمينة ابن مالك، جامعة منتوري قسنطينة، ماي 2011، ص 42/43.

3 - ذكر هذا صلاح فضل في كتابه "علم الأسلوب"، ص 160.

4 - نقلاً عن أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ينظر المرجع، ص 102.

5 - جون كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، لطبعة الأولى، 1986م، ص 42.

ثم أعقب ذلك الناقد الفرنسي "رولان بارت" وتناول مفهوم الانزياح وحدده بمصطلح الإيحاء، من خلال فضائين: فضاء تسلسلي وهو فضاء يخضع لتتالي الجمل التي على امتدادها يتكاثر المعنى بواسطة ترفيده ... وفضاء تركيبى: من خلال نواحي النص المرتبطة بمعان أخرى خارجية عن النص المادى، وتكون أصنافا من ضبابية المدلولات"¹.

كما تناول "تودوروف" مفهوم الانزياح واعتبره: ركيزة لتحديد الأسلوب فيعرفه بأنه "الحن مبرر"²، كما يرى أن اللغة تتشكل في الواقع من ثلاثة مستويات: المستوى النحوي، المستوى اللانحوي، المستوى المرفوض، وتحقق اللغة الأدبية في المستوى اللانحوي، ويكشف تودوروف بهذا عن ثلاثة أشكال للانحرافات: الانحراف الكمي من خلال تكرار حدوث السمة الأسلوبية، والانحراف النوعي عن القاعدة، والانحراف عن نموذج موجود في النص³.

فهذه جملة الآراء حول الانزياح نقلناها عن النقاد الغرب، وأوردناها على اختصار فيها، فكل باحث أو دارس أخذنا منه بطرف في تعريفه للانزياح ونظرتة إليه وتلقيه له من خلال فلسفته وفكره وثقافته ومرجعياته، وهذا مرد التباين والاختلاف في اصطلاحاتهم وتعريفاتهم، وللإشارة فقط؛ فإن الانزياح ليس خاصا بلغة الشعر كما يروج له بعض الدارسين وهذا ما لا يمكن التسليم به على إطلاقه، فلغة النثر أيضا فيها من الجماليات والانزياحات ما يستحق الدرس والاهتمام والتصنيف كالأعمال الروائية، وفن القصة، وفي غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى.

1 - الانزياح الدلالي في الألفاظ العربية، معجم العين نموذجاً، ينظر المرجع، ص 46/45.

2 - عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط 03، ص 102.

3 - سعاد بولحواش، شعرية الانزياح بين الجرجاني وجون كوهين، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي تخصص نقد أدبي، إشراف محمد ززمان، جامعة الحاج لخضر باتنة، سنة 2012/2011، ص 23.

● مفهوم الانزياح في الدرس النقدي العربي:

وفي التراث العربي نجد الانزياح نال حظا من الدرس عند علماء اللغة والبلاغة رحمهم الله تعالى، فسيبويه مثلاً: يرى أن الانزياح نوع من أنواع الاتساع والمجاز في الكلام، وذلك لعدم تجسيده للدلالات بهيئتها الحقيقية، فالانزياح يتعد بالمعنى عبر تركيب خاص إلى معنى سام ينزاح به عن الدليل النظامي المعياري¹. كما يهتم سيبويه بالانزياح اللغوي الذي له تحليلاته على الدلالة من خلال التقديم والتأخير بين عنصري الفاعل والمفعول أو بين عنصري المفعول والفعل أو بين عنصري مفعولين أو بين عنصري المبتدأ والخبر وغيره من الفصائل التركيبية يقول سيبويه: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ ما جرى في الأول، وذلك قولك (ضرب زيدا عبد الله) لأنك إنما أردت به مؤخرا ما أردت به مقدما، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه وإن كان مؤخرا في اللفظ، فمن ثم كان حد اللفظ فيه أن يكون الفاعل مقدما)². ولذا وصف الانزياح بأنه عربي جيد كثير، كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يهماهم ويعنيانهم³. فالانزياح عند سيبويه له معنى ودلالة تخلق آثارا بلاغية وخاصة على مستوى النصوص الأدبية، إذ تتضمن نسقا مزدوجا من الدوال والمدلولات⁴.

ومن العلماء البارزين في الدرس النقدي العربي قديما أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الذي أسهم بقدر كاف وكبير بجهوده المعتبرة في الدرس البلاغي والعربي، وفي حديثنا عن الانزياح فالجاحظ خاض في هذا الباب لما تناول ثنائية اللفظ والمعنى في الإنتاج النصي عموما والشعري

1 - صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الالفاظ العربية (معجم العين نموذجاً)، اشراف يمينة ابن مالك، مذكرة معدة استكمالا لمتطلبات نيل شهادة ماستر، جامعة منتوري قسنطينة، ماي 2011. ص 26.

2 - عمرو بن عثمان (أبو بشر) بن قنبر الحارثي بالولاء المعروف بسيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1408هـ، 1988م، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ص 34.

3 - عمرو بن عثمان (أبو بشر) سيبويه، الكتاب، ينظر المرجع، ص 34.

4 - صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الالفاظ العربية (معجم العين نموذجاً)، ينظر المرجع، ص 28.

خصوصا، إذ يتعامل معهما تعاملًا تقابليًا لا إفراط ولا تفريط، حيث يقول: "المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم، والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة في فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، وإنما يحبي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها واستعمالهم إيها، وهذه الخصال هي التي تقر بها من الفهم وتجليها للعقل¹. فالمعاني كمادة أولية لصناعة الكلام، قائمة في صدور الناس جميعا، تدور في أذهانهم وخواطرهم ومتاحة للعامة والخاصة، وقيمتها حسب الجاحظ هي الصفر فهي متداولة ومتناولة من قبل الجميع، لكن يوجد في مقابل ذلك معان حية صنعها الإنسان بالشعر فأخرجها من مكنونها لتؤدي وظيفتها التصويرية بلغة مختارة قادرة على استكناه تلك المعاني والإيحاء بها، فأصبحت ذات قيمة فنية أدبية، أي إنها انزياح دلالي بعيد عما ألف الكلام بما حمله من معان ذات خصوصية وتفرد، ولكن تلك القيم تتفاوت حسب قدرة الوسيلة على التعبير، والوسيلة بطبيعة الحال هي اللغة بما تسمح به من انزياحات تركيبية وغيرها، والعدول عن معاني الألفاظ الأصلية إلى معان مجازية يسوغه ترابط المعاني بسبب من الأسباب²، قال الجاحظ: "ويقولون جاءتنا السماء بأمر عظيم، والسماء في مكانها، وقد يقولون أيضا جاءتنا السماء؛ وإنما يريدون الغيم الذي يكون به مطر..."³. فالمعنى البلاغي عند الجاحظ ليس رهين الدلالة اللغوية المباشرة ولا رهين ألفاظ بعينها، ولكن معنى الكلمة مرهون بدورانها وتقلبها في سياق التركيب اللغوي، فهو (المعنى) يمثل الجوهر والماهية الروحية للتعبير اللغوي، فجوهر الأشياء لا ينفصل عن تحققها المادي، وقد أدرك الجاحظ أن

1 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط السابعة، 1418هـ/1998م، ص 75.

2 - صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الألفاظ العربية (معجم العين نموذجًا)، ينظر المرجع، ص 30/29.

3 - عمرو بن بحر (أبو عثمان) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الرابع، دار الجيل بيروت، لبنان، ص 16.

الجال الذي يحقق المعاني قيمها الشعرية هي تجاوز كينونتها الفكرية الأولى إلى وجودها وصيرورتها لغة مختارة تؤدي وظيفتها التعبيرية، بتوصيل المعنى وتصويره، فتكسب خاصيتها الشعرية والأدبية، وأشكال التعبير عنده تقوم على مستويين:

- استعمال عادي مألوف يخلو من كل سمة أسلوبية، يستعمله العامة من الناس.
- استعمال اللغة الموسومة بسمة فنية خاصة، وهو المستوى الثاني من مستويات التعبير الدلالي على الطاقة الإيحائية في الظاهرة اللغوية، وهذا بتوظيف المجاز والدلالات الاشتقاقية في توزيع المفردات¹. وعليه فالجاحظ وإن تحدث عن اللفظ والمعنى، فما الانزياح إلا ظاهرة نبعت من خالهما وتقلبات كل منهما مع الآخر.

وأما عبد القاهر الجرجاني رحمه الله فقد تميز عن غيره من البلاغيين، وذكر في أكثر من موضع من كتابه دلائل الإعجاز أهمية اللفظ والمعنى في اظهار بلاغة الكلام وجودته، وهو ما يقودنا إلى ما أسماه بالمعاني الثانوية (أو معاني المعاني)، وهو ما يشير إليه علماء اللغة بالانزياح أو العدول والانحراف، ومن المعلوم أن نظرية الجرجاني في (معنى المعنى) كانت قد أحدثت توسعا كبيرا في دراسات النقد العربي، وانزياح اللفظ عن معناه الأساسي إلى معنى آخر أو دلالة أخرى. وهو ما أطلق عليه الجرجاني (الدلالة الإضافية) وهو ما يعرف بالمعنى الضمني²، فالدلالة هي نتيجة لضم الكلم بعضها إلى بعض وسبيل ذلك كما قال الجرجاني هو: توخي معاني النحو وأحكامه، فلا "نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب تلك. ويقول أيضا: "ليس القصد معرفة قواعد النحو وحدها، ولكن ما تحدثه هذه القواعد وما

1 - صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الالفاظ العربية (معجم العين نموذجاً)، ينظر المرجع، ص 31/30.

2 - وفاء أبو الحسن دفع الله، محمد داود محمد، الانزياح الدلالي دراسة تطبيقية من خلال نظرية النظم، مجلة العلوم الانسانية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية اللغات، 2014. ص 206.

سيتبعه من معنى وما يتولد عن النظم من مدلول ... إذ إن الغرض ليس: " بنظم الكلم إن توالى ألفاظها في النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقى معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل"¹. فالجرجاني لا يفصل بين ثنائيي اللفظ والمعنى، بل جعل الصورة الثالثة وأقرها كتعبير عن كيفية النظم، إذ لا وجود لمعان عارية بل هناك معان خاصة بالمعنى لا يوجد بلا لفظ إنه قائم ضمن عملية النظم، فالجرجاني وحد اللفظ والمعنى في حيز الدلالة، فأى تغير في نظم الألفاظ يؤدي إلى تغير في المعنى².

كما توصل الجرجاني إلى التمييز بين نوعين من المعاني، معاني عامة؛ تتميز بها كل أنواع الخطابات العامة والمتداولة فهي معاني عقلية والتي لا تصبوا إلى أية غاية فنية جمالية، و المعاني الخاصة فهي تخيلية خاصة بالشعر ولغة الجمال والفن والأدب، بمعنى أن عبد القاهر يصنف الكلام على ضربين من خلال كتابه دلائل الإعجاز حيث يقول: " الكلام على ضربين ضرب أنت تصل فيه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضي موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ... وإذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى، ونعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ..."³. ولعل قوله معنى المعنى هو ما يتوافق وتعريف الانزياح الدلالي، وهذا مما يعسر على الأديب أو الكاتب الوصول إليه ونيل حظ كبير منه، وحتى يتحقق ذلك ينبغي

1 - عبد القاهر (أبو بكر) بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، الطبعة 05، 2004، ص 50/49.

2 - صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الألفاظ العربية (معجم العين نموذجاً)، ينظر المرجع، ص 33.

3 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ينظر المرجع، ص 263/262.

أن يجتهد في سبيل إبداع معانٍ جديدة وعبارات تحمل في طياتها معاني لا تتبادر إلى الذهن إلا بعد إعمال العقل والخطر فيها لذلك يقول الجرجاني في "أسرار البلاغة": "ومن المركوز في الطبع أن الشيء الذي نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجلاً وألطف، وكانت به أضنّ وأشغف، وهذا خلاف ما عليه الناس، ألا تراهم قالوا: "إن خير الكلام ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك.." ¹.

وما يمكننا التأكد منه هو أن عبد القاهر الجرجاني قد توصل إلى حقيقة لغوية دلالية لسانية هي الانزياح اللغوي والدلالي.

فمن خلال ما سبق نستنتج أن العرب قد ميزوا بين اللغة العادية واللغة الإبداعية، والوصول إليها يتطلب الاجتهاد في البحث عن المعاني وبهذا يحصل الإبداع والتميز، وتجدد الإشارة هنا إلى أن الانزياح لا ينحصر في جزء معين من أجزاء النص، وإنما له أن يشمل أجزاء عديدة منه، ولذلك فإن الانزياح يصح أن يقسم إلى قسمين تنطوي تحتها أشكال آخر من الانزياح، فأما النوع الأول فهو ما كان متعلقاً بجوهر المادة اللغوية أو ما يطلق عليه: الانزياح الدلالي، والآخر ما يتعلق بتركيب هذه مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه، سياقاً قد يطول أو قد يقصر، وهذا ما يسمى الانزياح التركيبي ².

والانزياح الدلالي: استأثرت فيه الاستعارة بمعظم الاهتمام، لأنها أهم ما يقوم عليه هذا النوع من الانزياح، بل لعلها أهم الانزياحات بإطلاق، ولذلك فقد حظيت عبر مختلف العصور باهتمام

1 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، شركة القدس، الناشر دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، 1412هـ/1991م، ص 140/139.

2 - أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ينظر المرجع، ص 111.

الفكر النقدي على تفاوت في عمق الرؤية والتحليل. وهو ما يتمثل أيضا في المجاز والاستعارة والنعوت والكنایات وأوصاف وغيرها...¹.

والرافعي رحمه الله من الكُتّاب الذين بلغت لغتهم وكتاباتهم شهرة كبيرة، لاقت حضورا في ميدان الإبداع والأدبية، وقبل الحديث عن أسلوبه حري بنا المرور على المؤهلات والمكاسب التي جعلت من الرافعي كاتباً مجيداً ولعل منها ما يلي:

فأول ذلك حفظه كتاب الله عز وجل وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم. وأدل شيء على تأثير لغة الكتاب العزيز والحديث الشريف على لغته ما ذكره كاتب في مجلة أمريكية من أن "الرافعي" لو ترك (الجملة القرآنية) والحديث الشريف ونزع إلى غيرهما لكان ذلك أجدى عليه ولملاً الدهر².

وثاني هذه المؤثرات ما حفظه من تراث العرب، وبيان فصحتهم، من حفظه لنهج البلاغة وفصول من المخصص، وكثرة قراءته في كتب الجاحظ وابن المقفع وأبي الفرج، وقد قال ابن خلدون رحمه الله: "وعلى قدر جودة المحفوظ، وطبقته في جنسه، وكثرته من قلته تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ. ثم تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما. لأن الطبع إنما ينسج على منوالها"³.

وتمت مؤثر ثالث هو قراءته الواسعة في شتى فنون الثقافة الإسلامية، ونحن نعلم أن لغة كثير من المصنفين من فقهاء أو محدّثين أو مؤرخين أو غيرهم لم تكن محل ثقة عند نَفْدة الاستعمال اللغوي،

1 - وفاء أبو الحسن دفع الله، محمد داود محمد، الانزياح الدلالي: دراسة تطبيقية من خلال نظرية النظم، ينظر المرجع، ص 205.

2 - مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 21.

3 - محمود محمد الطناحي، مقالات الطناحي، صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، القسم الأول، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، ص 152.

وحسبك أن "الأصمعي" قد خطأ "سيبويه" و "أبا عبيدة" و "الأخفش". وقد ظهرت في كتابة "الرافعي" أساليب تأثر فيها بلغة هؤلاء المصنفين.

أما رابع المؤثرات فهو ما ولع به "الرافعي" من النظر في الكتب المترجمة؛ فقد "تسللت إليه بعض عبارات الترجمة، واستعملها من غير أن يفطن إلى ما وراءها، على الرغم من شدة حساسيته"، وصارت جملته من أجل ذلك في نظر البعض "تشبه الحملة المترجمة أحيانا لفرط تحررها من الأنماط القديمة"، وأحسب أنه تأثر كذلك بما كان يقرؤه من الفرنسية مباشرة¹.

وقد أُلِّمَّ الرافعي بشيء من الثقافة الأوروبية ليلحق تارة بالكتاب الرومنسيين، وتارة بالكتاب الرمزيين في أسلوبه وخياله، على أن المعاني على حد تعبير أبي هلال العسكري مشاعة بين العجمي والحضري والبدوي، ولا نستبعد أن نجد في بعض رسائل الأحرار أو السحاب الأحمر أو غيرها أفكارا رومانسية وتعبيرات رمزية، ولا سيما أن الرافعي امتحن بالحب، واكتوى بناره، وأصبح قلبه رائده وإمامه في تفكيره وتعبيره، وتصويره، كما أُلِّعَ برنين الألفاظ وجرس الكلمات².

ولا نتعجب أن الرافعي قد سبق أولئك الفلاسفة والكتاب الغربيين في بعض ما كتب، فقد أخبر صاحبه أبا رية: "أنه أرقى من "برجسون" لأن أفكارا له في مقدمة كتابه المساكين طابقت بعض أفكار هذا الفيلسوف"³.

1 - ومما يظهر ذلك كتاباته في كتاب المساكين مثلا: كتابة قصته سحق اللؤلؤة وهي فصل ممتع في كتابه قصة مترجمة صاغها بأسلوبه الشعري، وتصرف فيها، مصورا مأساة جميلة ساذجة مع "كونت" غني بخيل.

2 - جمال الدين الرمادي، مصطفى صادق الرافعي، مجلة دعوة الحق، المملكة المغربية، الرباط، العدد الثالث، السنة الثامنة، رمضان 1384/جانفي 1965م، ص 38.

3 - كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، تقدم أبو طالب ريان، مجلة دعوة الحق، المملكة العربية المغربية، الرباط، العدد الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، ربيع الأول 1390هـ/ماي 1970م، ص 158. والراجح أن الرافعي قد اطلع على كتابات هؤلاء الأدباء والفلاسفة ولكن هذا لا يحدوا به أن يكتب على منوالهم وهذا ما عرف عنه طيلة حياته من عزته واعتداده بنفسه. وما يؤيد ذلك أنه قال: لقد قرأت "أوراق الورد" هذا الأسبوع، بعد أن فرغت من قراءة لشكسبير وأخرى للامارتين، وفي ظني أن "أوراق الورد" يرجح عليهما بكثير في معانيه وبيانه، ولكن هو الحظ....".

فكل هذه المؤثرات وغيرها من شخصية الشاعر ونشأته العلمية والمعرفية أسهمت في تكون ملكة الأسلوب الأدبي الرفيع عنده يقول أبو رية: "ولقد رأيت بمناسبة القول في طريقة كتابة شيخنا الرافعي وأسلوبه أن أواني قراء الرسالة بما قاله هو عن أسلوبه عندما سأله العالم الجليل يعقوب صروف: "لم لا تكتب بلغة سهلة يفهمها الناس كما كتب في تاريخ آداب العرب، فأجاب رحمه الله: "تمنيت لو جريت في انشائي كله مجرى أسلوب في "تاريخ آداب العرب" ومقالات أخرى، ولوددت والله أن أرفه عن نفسي، وأطرح عني الكد فيما عاجلته من أسلوب: حديث القمر والمساكين ورسائل الأحزان والسحاب الأحمر، ولكني أجدني كالمسخر في ذلك لقوة تساورني في أوقاته وتهب علي كالريح من سكون وركود، فلم أفكر قط في كتاب من هذه الكتب، ولكن تقع الحادثة، فيجيء بها الكتاب، ثم أرى من بعد صوته وتعلق المتأدبين به ما لم أكن أقدر بعضه وتنتهي إلى آراء مشيخة الأدب وطلابه، فإذا هم لا يعدلون بهذا الأسلوب شيئا في نسقه وألفاظه ومعانيه، ثم لا يعيه إلا من قصر عنه وشق عليه النزوع فيه وكابر في الإقرار بعجزه، فذهب يلتمس المعاذير والمعايب، وأخذ في ذلك مأخذ فرعون إذ جاءته امرأة فقيرة كانت هي وأطفالها يعيشون على درّ (عزّة) لهم، فماتت، فأقبلت المسكينة بها على هذا الذي يدعي الألوهية ويقول أنا ربكم الأعلى، وسألته أن يجيها، فاعتذر بأن في السموات أعمالا كثيرة أكبر من العزّة ... إن أرفع منازل البلاغة العربية كما قالوا، أن يكون في قوة صائغ الكلام أن يأتي مرة بالجزل وأخرى بالسهل، فيلين إذا شاء، ويشتد إذا أراد، ولا يبلغ هذه المنزلة أحد فيحكمها ويعطيها حقها من التمييز إلا جعلته الأقدار وسيلة من وسائل حفظ البلاغة يتسلم الزمن ويسلم، بل قل الألفاظ الصريحة المكشوفة، يتسلم لغة القرآن ويسلمها، فأما أسلوب واحد وطريقة واحدة فهذا في قوة كل كاتب على تفاوت فيه، ولن يكون الرجل حق رجل إلا إذا كان له مع الظرف واللين والدمائة حديدا من العضلات وفولادا من العظام، فإن لم يكن إلا اللين محضا والاسترسال خالصا فهذا اصلحك الله شيء سمه ما شئت إلا

أن تقول إنه رجولة، فإذا لم يبلغ الناس ولا أكثرهم هذه المنزلة فذلك أخرى أن يعد في محاسن من يبلغها لا في معاييه¹. وهذه الجزالة والسهولة في أسلوب الرافعي التي طغت على أدبه مردها إلى طبيعة خلقتها وتفكيره، الذي تميز به عن أقرانه منذ نشأته، والمرض الذي أصابه إحداها.

يقول عباس محمود العقاد عن الرافعي: "إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها"². واللوان البين في أساليب قد طفحت في مؤلفاته لا سيما كتابه "المساكين"، ولعل شهادة الإمام محمد عبده حين قال فيه: "لله ما أثمر أدبك، والله ما ضمن لي قلبك، لا اقارضك ثناء بثناء، فليس ذلك من شأن الآباء مع الأبناء، ولكن أعدك من خلص الأولياء، وأقدم صفك على صف الأقرباء، وأسأل الله أن يجعل الحق على لسانك سيفاً يحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل"³. تعد بحق شهادة في ابداعه البياني وبراعته في الأساليب واختياراته العذبة التي تجعل القارئ متعلقاً ومتصلاً بها. وإن كانت في بعض الأحيان تغمرها فلسفته العميقة، كما انتقد عليه ذلك الأديب علي الطنطاوي في ذكرياته⁴.

فعالم الانزياحات الدلالية والتركيبية زاخر في كتاب المساكين للرافعي بدءاً من أول فصل فيه إلى آخر جزء منه، وفيما يلي عرض لنماذج منه.

1 - محمود أبو رية، أسلوب الرافعي وطريقته في الكتابة، مجلة الرسالة، العدد 359، 20 مايو 1940، ص 854/853.

2 - محمد علي الهاشمي، مصطفى صادق الرافعي، إمام الأدب وحجة العرب، مجلة الفيصل عدد خاص بالأديب مصطفى صادق الرافعي، السنة 15، العدد 179، جمادى الأولى 1412هـ، تشرين الثاني، نوفمبر، ديسمبر كانون الأول، 1991م. ص 49.

3 - مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزء الأول، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002، ص 07.

4 - يقول علي الطنطاوي: أكثر ما كنت أنصحهم بقراءته من كتب الرافعي، تحت راية القرآن، ووحى القلم، أما السحاب الأحمر وأمثاله فأوصيهم بالابتعاد عنه. (ذكريات - 8 ص 250). لكنه في مواضع أخرى من الكتاب يشيد بأدبه ويمتدحه.

المبحث الثاني: شعرية الانزياح في كتاب لمساكين:

● المطلب الأول: الانزياح الدلالي في كتاب المساكين:

اللغة هي العنصر الثاني من عناصر الأسلوب، وهي أداة الأديب التي يستخدمها في كتابة النص، واللغة لها وظيفة أساسية في النص الأدبي، وهي نقل الأفكار من المتكلم الى السامع، كونها جزءاً من الأسلوب، ولهذه اللغة نظام في مفرداتها وأساليبها، ما يلزم الأديب بالتقيد بمدلولات الألفاظ، ولها وظيفة تؤديها في النص الأدبي، فتكون أداة في الفن الأدبي يعبر من خلالها الأديب عما يريد إيصاله من الأفكار والمعاني¹.

وقد عرف الرافعي بأسلوبه الجزل بما كاد ينفرد به فيشغف الآخرين، حيث كانت له عناية خاصة جمع محاسنها من أصحاب الأساليب في العربية من لدن كان عبد الحميد الكاتب يترسل، وأبو عثمان الجاحظ يستطرد، حتى عاد جار الله محمود الزمخشري يتوسل بفنون البلاغة، وبديع الزمان يتصنع، وسواهم ممن يتألق، ومن جاء يقتفي الآثار من بعدهم يترفق ... وكان يتحرى فصح كلامهم يستعذبها ويستحليها، ويجعلها من بعض محفوظه ومادة موسيقاه، ثم يحرك في نفسه جهاز التوليد، يبتكر في الاسناد، ويبدع في الصياغة، ويختال في الصنعة، ويعنى كل العناية بالتهذيب وتدريب العبارة وانتظام الجملة بالتقديم والتأخير وترادف المعاني، "بل كان يستخدم ألفاظ اللغة في بناء صور جديدة، ولقد برع في هذا براعة أثرت اللغة ثراء عظيمًا"². وقد بدا هذا جلياً وواضحاً فالرجل إنما يكتب بطريقة تغريك في القراءة له من أول وهلة فيشدك فيه براعة وتناسق الألفاظ

1 - ينظر: النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، د نعمة رحيم العزاوي، منشورات وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية _بغداد، 1398هـ _ 1978م، ص 15/12.

2 - مصطفى نعمان البديري، الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، دار الجيل بيروت، دار عمار، الأردن، ط 01، 1411هـ/1991م، ص 348.

وإحكام العبارة، وإنك لا تكاد تخرج من عبارة بديعة إلا وتصطدم بأخرى خير منها أو مثلها، يقول عمر الدسوقي: "الحديث يطول لو رحت أعدد ما أفتنه يراعه وخياله من صور بيانية في شتى الموضوعات..."¹.

ونرى الرافعي يتكلم عن أسلوبه فيقول: فإن مذاهب العرب واسعة ولنا ما لهم من التصرف في الاستعمال إذا لم نخرج عن قاعدتهم وقد يزيد الإنسان حرفاً لاستقامة الأسلوب وإن خالف نقل اللغة، كما يزيد العرب ويحذفون من أمثال ذلك وهو كثير في كلامهم والقرآن أبلغ شاهد عليه....". فالرافعي رحمه الله لم يكن متمزماً ومتعصباً لمذاهب العرب وأنها قرآن لا ينبغي تجاوزه، بل كان ممن يدعو إلى التجديد ولكنه تجدد في الأذواق والأساليب وتوليد معان مبتكرة وعبارات بديعة، وقد بين ذلك في كتابه تحت راية القرآن حين تناول قضية القديم والجديد رداً على طه وسلامة موسى².

والم تأمل في كتابه المساكين لينبهر للغة الكاتب، ويتعلق شغاف قلبه بها، مع صعوبتها وعمقها في كثير من الأحيان، فبعد قراءة وسياحة في فصول كتابه هذا الذي قال فيه: "أردت به بيان شيء من حكمة الله في شيء من أغلاط الناس". تتبين من خلاله طريقته في الكتابة، أسلوبه الرصين والجزل في طرحه، فالمغالط كثيرة في عقول الناس ونظرتها لما قدره الله تبارك وتعالى فهم يختلفون في نظرهم للغنى والفقر، للحب والبغض، للفرد والمجتمع... وحديثنا عن الانزياح يجرنا إلى البحث عن أبرز الصور البيانية تمثيلاً له (أي الانزياح) من مثل: التشبيهات والاستعارات والمجازات وفيما يلي عرض لذلك كله بما يسره الله:

يستفتح الرافعي كتابه أيضاً بحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه اللهم أحييني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين"، فقال له أنس بن مالك رضي الله عنه:

1 - مصطفى نعمان البدرى، الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، ينظر المرجع، ص 349.

2 - مصطفى صادق الرافعي، كتاب تحت راية القرآن، ينظر المرجع، ص 10.

يا رسول الله إن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين. وخير عليه الصلاة والسلام أن يكون له مثل أحد ذهبا فقال: "لا يا رب، أجوع يوما فأدعوك، وأشبع يوما فأحمدك."

- الانزياح الدلالي: تمثل الاستعارة والتشبيهات عماد هذا النوع من الانزياح، وكل هذه الأنواع تخرج باللفظ من دلالة الحرفية إلى دلالات أعمق وأوسع، حتى تغدو اللفظة حزمة من المعاني، وتستطيع الاستعارة حمل رؤية الشاعر وهمومه النفسية والتعبيرات التي يرغب في إيادها بل وتتعدى إلى خرق المألوف من عرف اللغة لتكون أسلوبا يثير القارئ ويدفعه إلى البحث عن خبايا المعاني التي تقف وراء النص¹.

فمن الانزياحات التي ذكرها الرافعي في أول فصل له من كتاب المساكين وهو بعنوان "الشيخ علي"، حيث جنح الرافعي في هذا الفصل إلى وصف هذا الشيخ الذي استلهم منه أحاديث المساكين وفلسفته ونظرتة للحياة بين الغنى والفقر، البغض والحب، الحياة والموت وغيرها من فلسفات الحياة الكثيرة، فكان شمعة مضيئة تنير له عباراته وتشرق بها كلماته فهو حين يصفه يقول مثلاً: "وكان ينبغي ألا يقوم مثله على مسرح الخلق إلا مثلاً". (فأعطى الحياة الدنيا صورة المسرح، والخلق عليها يؤدون الأدوار كل بحسبه).

وفي انزياح آخر وأسلوب فلسفي عميق يقول الرافعي أيضاً عن الشيخ علي: "وأحسبه في نظره إلى الخلق يتوهم أنه رحالة خرج من بعض الأفلاك التي لا تعرف (بالعقول العشرة) فهبط من أشعته على الدنيا، فهذا العالم شيء جديد في نفسه وهو شيء جديد في العالم؛" قوله العقول العشرة" إشارة إلى ما يعرف في الفلسفة اليونانية بنظرية الفيض الإلهي، وفحواها أن الأفلاك وعقولها، هي

1 - دانا عبد اللطيف سليم حمودة، شعرية النثر طوق الحمامة نموذجاً، رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية، إشراف: محمد خليل الخلايلة، قسم اللغة العربية، جامعة الشرق الأوسط، 2012/2011. ص51.

التي تدبر العالم، وأن الله تعالى أوكّل لها تنظيم العالم وتدييره، وأنه صدر عن نور الخالق ما يسمى بالعقل الأول، الذي صدرت من نوره بقية أجزاء العالم السفلي والعلوي¹.

وهذا يدل على ثقافة الرافعي الموسوعية، وإطلاعه على هذا الميراث الفلسفي أن يوظفه في كتاباته ومدونات، وهذا انزياح دلالي وقع في استبدال مفردات العقول العشرة من أجل بيان أن الشيخ علي ربما يكون له من الإطلاع والمعرفة بتجارب الناس وحياتهم ما يوصله إلى الرقي البشري، على الرغم من أنه رجل فقير من عامة الناس، فالعالم يعرفه ويفهم كنهه والعالم لا يعرف الشيخ علي ولا يدري به أي لا يستفيد منه.

ويواصل الرافعي وصف الشيخ علي رحمه الله من خلال انزياحاته الدلالية فيقول: "ينظر إليك كما تنظر إليه"، وهذا الانزياح الدلالي الذي تمثل في التشبيه حيث اختار من المفردات جميعها ليتوقف عند عبارته "ينظر إليك" فشبه الرؤية بالرؤية، لأن لا شيء يشبه الشيء نفسه ويبين حقيقته، وفي ذلك بيان أن الشيخ علي حين تنظر إليه لا يعنيه من أمرك تكلف أو صنعة حتى يجذبك إليه، فلربما تراه وتتجاهله، وتلك النظرة الهادئة في عينيه، تتلقاك فتثير في نفسك تساؤلات واستفهامات كثيرة، وقد علق الرافعي عليها في هامش كتاب المساكين قائلا: من وساوس الفلسفة اليونانية القديمة أنهم يحملون الأفلاك عشرة، ويسمون كلا منها عقلا، وقد أخذها عنهم فلاسفة العرب وزعموا العقل الإنساني من تحتها كلها².

لنتجلى صورة الحكمة في هذا الشيخ الهرم، صورة الحكمة العالية والتجربة المحكّمة، وليجمع الرافعي بين المتناقضين في أبدع ما يكون من تراكيب الحمل ويخرق أفق التصور لدى القارئ، فيقول عن الشيخ علي: "ينظر إليك كما تنظر إليه فأنت تتبين في سحنته الواضحة أوصاف الجنون

1 - محمد زياد بن عمر التكلة، عايض بن سعد الدوسري، مجموع في كشف حقيقة الجزء المفقود (المزعوم) من مصنف عبد الرزاق، دار الحديث، ط1، ربيع الأول 1428هـ الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 222.

2 - مصطفى صادق الرافعي، كتاب المساكين، مصدر سابق، ص 34.

الهادئ، وتعجب من منظر تلك العاصفة النائمة في عينيه، وهو يستجلي منك معنى الغرابة في قدرة الله إن أنشأك مثالا غير مفهوم وبطيل عجبه منك أنك على ما فيك تتعجب منه...¹، فجمع بين الجنون والهدوء، والعاصفة التي ينبغي أن تكون هوجاء فقال أنها نائمة، فالجنون لا يهدأ بل يثور ثورة، وينفعل ويتحرك، والعاصفة لا تهدأ أيضا ولا يقر لها قرار، ولا تسكن البتة، وقوله الجنون الهادئ يعني أن الشيخ علي على صورته التي تراها أول وهلة يتراءى لك أنه من المجانين الذين تعودنا صراخهم وعويلهم وضحكهم وغير ذلك مما نشهده منهم، ولكن الشيخ علي يبدو عليه السكون الذي يبعث به من داخله فيحتويك وتطمئن إليه، وتنتظر منه ثورة الجنون وحركاته وطيشه وعشه وضحكه وبكائه، بيد أن الشيخ علي يغمرك بالهدوء والسكينة أول ما تراه، فتعجب منه لهذا كله وهو يتعجب منك حين يرى معنى الغرابة التي فيك على أنك تتعجب منه.

يقول الرافي: "فكل رجل في رأيه (أي الشيخ علي) إنما هو صورة الرجل الصحيح الذي لم تزور فيه حرفة العيش ومطالب الحياة شيئا على الله". وهذا انزياح دلالي يكمن في انتقاء الرافي واختياره المعنى الذي يصبو إليه وهو أن الحياة لم تغير في هذا الرجل المعنى الحقيقي له، وهي بأشغالها وهمومها وصوارفها مبكيات ومضحكات تغير في خلق الإنسان وفي طبيعته ومشاعره ومبادئه وأفكاره، فالرجل الصحيح في رأي الشيخ علي هو من حافظ على مبادئه وقيمه وطبيعته التي ثبت عليها ولم تستطع هذه الحياة بمطالبها أن تغير شيئا من قناعاته مع الله تعالى في الرزق والعمل والشغل ... الخ.

ويزيد الرافي في بيان شخصية هذا الشيخ الهرم ويعدل عن اللغة البسيطة في التعبير، ليستبدلها بغيرها مما توفر عنده من اختيار وانتقاء فيقول: "لما ولد هذا الرجل ولعل الطبيعة يومئذ كانت في

صميم الخريف، ثائرة مجرودة غبراء، قامت أمه عن نجم منطفئ لا تعرفه الأرض، وقد زهدت فيه السماء فكان رضيعاً ثم فطيماً ثم جحش، ثم ترعرع وعاد فتى وانقلب كهلاً وهو اليوم يحطم الخمسين وكأنه لم يكن في ذلك شيئاً، ومتى سويت عليه الأرض لم يترك وراءه الأسطر ضئيلاً في سجل الموتى فكان الخير والشر لم يدركا هذا الرجل¹.

فهذه العبارات كلها تجتمع في معاني الغربة، وتشكل بانزياحاتها التي ذكرها الراجعي وهو يتحدث عن الغربة التي عاشها الشيخ علي حيث ذكر أنه نجم ولكنه غريب، قد زهدت فيه الإنسانية جمعاء والأرض والسماء على الرغم من أنه عاش وترعرع فيها منقلباً بين الرضاعة والشباب والكهولة والشيخوخة، ولعل أشياء أخرى على ظهر هذه البسيطة يشبهون الشيخ علي أو يفوقونه في الغربة لا تعرفهم الأرض، ويذهب فيهم الناس أجمعون. فتري كيف أن الراجعي عبر عن هذا المعنى وشبه الشيخ علي أنه نجم لتألقه وفهمه لمعاني الحياة في الأرض والسماء.

ويواصل الراجعي وصف هذه الشخصية الفريدة حسب ما يقرره في الكتاب فيأتي بانزياحات استبدالية تتمثل في التشبيه، قائلاً: "فكان الخير والشر لم يدركا هذا الرجل، وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها فلا تشهد أمراً من ورائه حتى تنطلق، وكأنه حي على رغم الحياة"². واستعمل الراجعي في هذا الموضع التشبيه لأنه شعر أنه أكمل في التعبير من غيره في إصابة الغرض ووضوح الدلالة على المعنى المراد، فقلوه: كأن الخير والشر لم يدركا هذا الرجل، يعني به أن هذا الرجل عاش معيشة عادية وسط الناس، لم يدر به الناس، ولم يعرفه أحد منهم، فلو أصابه خير وأنعم عليه لعرفه الناس أجمعون، واشتهر أمره بينهم، ولو أصابه شر أو مصائب أو دواهي لحزن لأجله الناس وتعاطفوا معه، بيد أنه عاش عيشة بسيطة لا يعرفه من خلالها أحد. وهذا إن أمكن هو ما يريده الراجعي من خلال هذه العبارة في التشبيه والتي تليها، وكأنه روح كتب عليها الحبس في جسمها، تلك الروح

1 - مصطفى صادق الرافعي، كتاب المساكين، مصدر سابق، ص 42.

2 - مصطفى صادق الرافعي، كتاب المساكين، مصدر نفسه، ص 42.

المفعمة بالكبرياء والأناة والنظرة الفلسفية للحياة، فلا تشهد أمرا من ورائه حتى تنطلق، فكأنه حي على رغم الحياة، كتب عليه الحبس في هذه الحياة التي لم توف حقه، ولم تحبه المنزلة التي يستحقها كفيلسوف فقير في هذه الحياة، فكأنه حي الحياة البسيطة التي عاشها على ظهر هذا الوجود على رغم الحياة التي يعيشها الناس أو ينبغي أن يعيشها الناس. حال الشيخ علي كحال الروح المحبوسة في الجسد لا تتطلع إلى خارجه أبدا، فإذا تحررت انطلقت إلى الحياة الحقيقية، فصار حينئذ حيا رغم الحياة التي كان يعيشها كباقي الناس ... ويقول الرافعي رحمه الله مواصلا حديثه عن الشيخ علي: "بل أي عقل وأي جنون ليس من أثرهما الخير والشر"، أي فإن كان عقلا ففيه الخير وإن كان جنونا ففيه الشر، ويقول: "إن أكبر من تنجبه الفلسفة ويخرجه الأدب ليطوي عمره طيا وراء هذه الغاية البعيدة"، هذ الشيخ الفيلسوف الفقير الذي استلهم الرافعي منه فصول هذا الكتاب الذي كان يراه بعين الشيخ علي رحمه الله رحمة واسعة شبيه الرافعي بابن الفلسفة وقد خرج من رحمها، واختار أنه ابن الأدب، ولا تتأتى الفلسفة ولا الأدب إلا لمن نحتته تجارب الحياة واستودعه مكتبته البديعة من آلام و فرح وسعادة وحزن، وكذلك الشيخ علي رحمه الله، والانزياح الاستبدالي هنا متمثل في الاستعارة حيث استبدل لفظ الحياة بالفلسفة أو لفظ الأم بالفلسفة، واللفظ المبين لذلك هو قوله تنجبه، ليخبر أن الفلسفة قد ولدت هذا الرجل الذي نحتته تجارب الحياة حتى أصبح كتلة من التجارب والخبرات التي نفتتها الحياة في روعه فغدا كتابا يستوحي منه الرافعي فصول هذا الكتاب، والأدب الذي يسعى الإنسان إلى اكتسابه، فقد كان له الشيخ علي ابنا بكرا يتمثله في كل صفاته، كيف لا وهو الفيلسوف الفقير، وقوله: "ليطوي عمره طيا" انزياح دلالي تمثل في تشبيه الرافعي عُمرَ الشيخ علي بالكتاب الذي يطوي عمره طيا، أي حتى يصير فيلسوفا وأديبا في هذه الحياة، ويعرف مقاديرها ويصل إلى الحكمة العالية فيها، عليه أن يمر بها حتى تطويه؛ والطوي فيه شدة وقوة لتمام صورته وكمال هيأته من أجل بلوغ هذه الغاية البعيدة، ويؤكد ذلك ويبرره قول الرافعي فيما بعد:

"وما حياة الفلاسفة إلا اختبار للموت فهم يميّتون الموت في أنفسهم كل سبب إلى الشهوة، وكل داعية إلى اللذة، ويحيون بالقسم الأعلى، وتبقى مادة الأرض فيهم كأنها أرض بور عارية المحاسر، لا تخصب ولا تنبت، وهذا الشيخ علي كله أرض بور"¹. فيكون هذا انزياحا دلاليا آخر شبه فيه الرافعي حياة الشيخ علي بأنه أرض بور كله؛ والأرض البور لا حياة فيها، فليس له قسم أعلى يحيا به بل كله يحيا كأنه أرض بور، وذلك لفقره ومسغبته، فكان بحق كما أخبر الرافعي: عصرا برأسه، من تاريخ الأخلاق، أي في خياله وعقله عصر لا شأن له بتلك العصور التي يعيشها، بل قد فاقها ومضى في سبيل غير سبيلها، كونه فهم فلسفة الحياة وكيفية العيش بها، فكان كشيوخ الفلاسفة وحكما الدنيا يعيش في الناس بعقل غير العاقل، ولذلك قال عنه الرافعي: أي عقل يعيش به إذ هو عقل الحكيم الفيلسوف الذي فاق عصره ومضى ... فهذا التشبيه يوحي انحاء واضحة ويدل دلالة قطعية أن الرافعي يرى الشيخ علي رحمه الله عصرًا بأكمله ومادة من طراز غير البشر بل مادة الفلسفة والحكمة العالية. ويواصل الرافعي حديثه عن الشيخ علي رحمه الله ويستوحي من لغة الانزياح عنده ويتجاوز إطار الجملة بمعناها الذي يقابلنا أول وهلة ويتعداه إلى ما وراء التركيب ليغوص في ظلال المعنى العميق فقول: كأنه جزيرة قائمة في بحر، والجزيرة على ما فيها من الغربة إلا أنها منبع الجمال ومكان الخطر في الوقت نفسه، لأنها محاطة بماء البحر حين يزجر وينهمر، فأعطاه صورة الجزيرة لوحدها في هذا العالم وتفردتها على الرغم من جمعها بين الجمال والخطر. وهكذا هو الرافعي يخترع مالا وجود له أو ما لا يلتفت له أو لا ينتبه له غيره، وتغن لنا ونحن مع انزياحاته وطريقته في الكتابة قول العقد حين يقول: "إنه ليتفق لهذا الكاتب من أساليب البيان ما لا يتفق لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها"².

1 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص 42.

2 - محمد علي الهاشمي، مصطفى صادق الرافعي، إمام الأدب وحجة العرب، مجلة الفيصل عدد خاص بالأديب مصطفى صادق الرافعي، ينظر المرجع، ص 49.

ومما جاء أيضا في فصل: في وحي الروح (التراب المتكلم أمام التراب الصامت) الذي يصور الرافعي فيها نفسه ترابا حيا يكلم ترابا صامتا وهو روح أخيه محمد الكامل الرافعي، وهذا انزياح دلالي أيضا اختار فيه الرافعي مفردة الكلام والصمت، لمعنى القبر الذي ربما ينطق ويصمت، وكانت مادته من وحي الروح الأثير عند أخيه، الذي كان كثيرا ما نخله أفكاره¹. وقوله عندما تكلم عن السرور في دهر الانسان وأنه يمر مرور الكرام: "والانسان من الهم في عمر دهر لا يموت، ومن السرور في عمر لحظة تشب وتهرم وتموت في ساعات"²، والانزياح هنا في لفظ لحظة العمر وكيف انتقى لها مفردة الشيب والهرم والموت، ليجعل منها صورة الانسان وهو يعيش هذه الحياة. وشبه الدهر حال إصابة الانسان بالهموم ووصفه بالخلود واستبدل له من ذلك قوله لا يموت فالموت صفة من صفات بني البشر فاخترها للدهر حتى يظهر كم يطول زمن النوائب وكم يعاني الانسان جزاءها وهو إذ ذاك لا يملك سوى أن يمضي زمنها ويمر سريعا، عكس زمن السرور الذي يصفه بإنسان يهرم ويموت سريعا كون لحظات السرور تمر سريعة ولا نكاد نستشعر لذة منها أو متعة فيها لتبقى ذكرى خالدة في حياة الانسان. وهذا من دقيق المعاني أفاده هذا التركيب الذي ذكره الرافعي واستعان بالانزياح هنا والمتمثل في الاستعارة لإثبات ذلك وبيانه في لغة حرق فيها نواصي وقواعد الكلام العادي ليرتقي قمم التعبير والشعرية.

ومما ذكره الرافعي في هذا الفصل أيضا من انزياحات دلالية واستبدالية: "وقف التراب المتكلم"³، حيث شبه التراب المتكلم واختار له صورة الانسان، وبالعودة إلى مناسبة هذا الفصل نجد أن الرافعي شبه نفسه بالتراب المتكلم، فاختر التكلم للتراب الذي يعني به شخصه استنادا لقوله

1 - مصطفى نعمان حسين البديري، الإمام مصطفى صادق الرافعي، ينظر المرجع، ص 415.

2 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص 74.

3 - مرجع نفسه، ص 82.

صلى الله عليه: كلکم لآدم وآدم من تراب¹. يقف وقفة التأمل بعد وفاة أخيه محمد الكامل الرافعي رحمه الله، واستعماله لفظ وقف فيه انزياح مبهر، لبيان تلك الوقفة وما تحويها من تفكر وتذكر واتعاظ وعبرة وتأمل وانصهار في هذه المحنة التي تخطفت روح أخيه، فشبه التراب بذلك الانسان الذي يقابل قبر شخص عزيز عليه متألماً باكيا واقفا وقفة تختصر في حروفها كل معاني الوعظ والتفكير.

ومما جاء من انزياحاته الدلالية قوله: "سألت القبر أين المال والمتاع...؟ قال: كل هذه صور فكرية لا تجيء إلى هنا؟"² (أي إلى القبر)، حيث تمثل هذا الاستبدال في الاستعارة في قوله "سألت القبر" حيث استبدل لفظ "الميت" بالقبر لأنه مدفون فيه، والقرينة حالية لأنه زار قبر أخيه رحمه الله، فما أحد أصدق له في الخطاب وأوعظ له من القبر نفسه وهو قبر أخيه، فتراءى له أنه يسأله ويخاطبه: وكأنه شخص يحاوره ويكلمه فأجابه جواب الحكيم العاقل الفاهم لمجريات الحياة الدنيا. وهذا من بديع الاستعارة فهي خرق للغة العادية، إذ أدت إلى تفتيق المعنى وتوسيعه، وهذا ما جرى في هذه العبارة البديعة.

وفي حديثه عن الفقر والفقير، تحدث عن أخطاء الناس في فلسفة الاجتماع، وتصدى لبعض الحلول القاصرة في حل مشكلة الفقر وقد أدرك عصر الاشتراكية العلمية، تمحق رأس المال، لتصل معنى إلهيا في محق الربا، التي وجدها ولكنه وجدها أيضا تتغابي عن تربية الصدقات، وتتعامى عن نظام الزكوات، ولو أخذ بهذه الأصول الإنسانية العامة للدين الإسلامي العظيم، لأصلح الفقر

1 - أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في التفاخر بالأحساب ح5116، ولفظه: "إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقي أنتم بنو آدم وآدم من تراب ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن"، ينظر سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الشعث الأزدي السجستاني، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، الجزء السابع، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 2009م، 1430هـ، ص438.

2 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص83.

والغنى معاً¹ (وقد ختم هذا الفصل بقصيدة فيها قصة دموع الهرم لدموع الصبا من الشيخ البائس لحفيدته ولكنه لم يلحقها). يقول الرافعي: "تقول آماله: ما هو الموت الذي يستلب الحياة؟ وتقول أطماعه: "وما هو الفقر الذي يجمع على الروح بين الموت والحياة؟ والانزياح الدلالي هنا يكمن فاستبدل القول للآمال والأطماع وإنه لحديث حق وصدق فالآمال لو تكلمت لسألت عن الموت كونه الحقيقة التي يخسف بها ويمحو ظلالها، والأطماع لو نطقت لسألت عن الفقر الذي ينهكها إذ هو سيف اليقين وكابوس يشبه الموت يجعل الانسان يعيش الموت وهو على قيد الحياة.

ومن الانزياحات الدلالية أيضاً أن وظف الرافعي التشبيهات من ذلك قوله حكاية عن الفقر وحديثاً عنه: "الفقر فصل من عمل، كالشتاء من كل سنة"²، فالفقر لا بد له من وجود وحضور في حياة الناس، وحضوره ربما يكون مزجراً كعواصف الشتاء كل سنة، واختار الرافعي عواصف الشتاء لأنها تكون عاتية ومدمرة، كذلك الفقر إذا ما حلَّ بالبشر فهو يأتي بكوارث ومصائب للإنسان. فشبّه الرافعي الفقر على أنه شتاء من كل سنة وهل وجدنا سنة دون شتاء، وهل وجدنا بشراً دون فقر، وهل وجدنا حياة دون فقراء، هيهات هيهات ...

ومن ذلك أيضاً قوله: "الجوع فقر، المرض فقر، التعب فقر، الضجر فقر"³، والتشبيه البليغ كما هو معلوم في كتب البلاغيين هو جعل المشبه عين المشبه به أي يماثله مماثلة مطلقة وكاملة، فالجوع فقر حقاً لخلوه من الشبع، والمرض فقر كله لخلوه من العافية، والضجر فقر كله لخلوه من السعادة والمرح. فالمعنى هنا واضح وفيه جمالية لما اختار الرافعي عن طريق الانزياح الدلالي واختار مفردات: الجوع، المرض، التعب، دون غيرها لتمثل المعنى الذي يريد التعبير عنه، وحسن الاختيار والالتيان بما

1 - مصطفى نعمان حسين البدر، الإمام مصطفى صادق الرافعي، ينظر المرجع، ص 415.

2 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص 88.

3 - مرجع نفسه، ص 94.

لا ينتظره القارئ من مفردات تليق بالمعنى، وتجعل المثلثي يبحث في ظلال المعنى من أجل استيعابه وما في ذلك من متعة لغوية وجمالية

ومما ذكره من انزياحات دلالية أيضا في قصة "مسكينة مسكينة" وصف فيها فتاة بعينها، تهبط إلى أهل الغنى تلتمس الحياة بسد الرمق. قال فيها: "استضائق حتى كأنها تنفذ إلى رزقها من شق في صخرة في غار جبل"¹. وهذا من أبرع التشبيه وجميل البيان، فصور ضيقها وعيشها وضنك حياتها وصعوبتها ومعاناتها وكأنها في شق صخرة والشق دليل على الضيق والحرج ثم هذا الشق الذي هو في الصخرة في غار جبل، وما كان هذا المعنى لينفذ إليه الرافعي لولا اختياره مفردات التشبيه الذي مثل له، والاتيان بما لا يتوقع من مفردات اللغة لبيان المعنى، فهذا التشبيه يصور كم تعاني هذه الفتاة وتضيق عليها سبل الحياة ومرد هذا المعنى كله إلى التشبيه وبلاغته.

ومما ذكر من انزياحات دلالية تمثلت في التشبيه في فصل "الدين ولادة ثانية" قوله: "واستكبر كأنه فرعون النيل"، واختيار الرافعي ناتج عن استبدال مفردة التكبر والتعبر عنها بما يلائمها، فالتكبرون كثر في تاريخنا، وفرعون مصر هو أعتى وأطغى، فاختيار الرافعي لفرعون كمثال للتكبر هو عين الصواب، فإن فرعون من أعتى وأكثر الناس استكبارا ولو لم يكن كذلك لما قال تعالى مخبرا عنه: "إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا"². وهذا من بدیع الكلام في الحديث عن المتكبرين وتشبيههم بفرعون فيه اخبار بنهايتهم المحتومة والسيئة ميتة المستكبر والطاغية وهلاكه في الغابرين.

ومن جميل الانزياحات في مقال "وهم الحياة والسعادة" قوله: "المغرور رجل جمع الله عليه المصيبتين في باصرته وبصيرته"³، حيث يشبه الرافعي الرجل المغرور بالرجل جمع الله عليه المصيبتين في

1 - مرجع نفسه، ص 108.

2 - سورة القصص الآية: 04.

3 - مصطفى صادق الرافعي كتاب المساكين، مصدر سابق، ص 145.

باصرته وبصيرته، إذ لو كان فيه شذر تواضع لأدرك بباصرته وعينه وما يراه من صور الناس تترى عليه آناء الليل وأطراف النهار فيتعظ ويستحيي، ولو كان له قلب والقى السمع وهو شهيد لأدرك بأن الغرور مطية الجهال، ومركب المتعصبين. فمصيبتيه مصيبتان، في باصرته وفي بصيرته.

وفي حديثه عن الحظ والحرب يقول رحمه الله: "إن هذه النفوس لتبلى من طول ما يلبسها قدر ويجعلها قدر"¹. وهذا انزياح دلالي، تمثل في الاستعارة، حيث استبدل الثوب الذي تمر عليه الأيام فيبلى، وشبهه بالنفس التي تخلق من صوارف يومياتها، بسبب ما يمر بها من نوائبه وشيء من لحظات السعادة والمرح، وتقلبات الحياة وتغيرات الظروف واختلافها من حال إلى حال ليجعل الروح مثل ثوب بالي من كثر ما يلبسه الانسان مرة في البرد ومرة في الحر ومرة في النسيم فيبلى ويصبح رثا من تقلبات ما يمر به، وكذلك هذه الروح.

ويقول الرافعي في حديثه عن الجمال: "أفترى الشوهاء على ما بها مما ركع الدهر وسجد"²، وهذا انزياح دلالي تمثل في الاستعارة في قوله: ركع الدهر وسجد" ومعناه تقلباته وأحواله المتغيرة تصيبها، من فقر، ومسغبة.

ومما ذكر أيضا: "المرأة القبيحة كالقمر الأزهر"³. وهذا من التشبيه التهكمي، كون التشبيه قد يستعمل لتزيين المشبه أو تقبيحه ويخرج من هذا التهكم به والسخرية، وقد علق الرافعي على هامش هذه الكلمة: "هذا تهكم من الشيخ علي يريد به طاشة من فتياتنا وفتياننا ممن يرون الدين شيئا قديما في لغة قديمة، ونفوس قديمة، ومذهب قديم، فليهنهم البلاء الجديد الذي حل بأنفسهم محل

1 - مرجع نفسه، ص 221.

2 - مصطفى صادق الرافعي كتاب المساكين، مصدر سابق، ص 259.

3 - مرجع نفسه، ص 267.

الدين فجعل الرجل بلاء على المرأة إن تزوج بها أو أهملها والمرأة بلاء على الرجل إن كانت له أو لنفسها.

ونختتم بما ورد في الفصل الأخير "الدين ولادة ثانية" والذي يتكلم فيه عن وصف أغرار دعوة التجديد الأربعة، والذين منهم الرجل المصلح فيما يظهر للناس، المخادع لهم فيما بعد يقول: "فهو يطرد الأزمنة، ويمحو العادات..."¹. فالانزياح الدلالي هنا يكمن في الاستعارة التي اختار الرافعي مفردات خاصة واستعملها ليعبر بها عن المعنى المقصود، وهي لفظ (يطرد، يمحو) فشبه الأزمنة أنها تطرد والعادات تمحى وتنزل، لأن صنيع هذا الرجل حين يركب أديان الناس وأخلاقهم بمزاعمه وخرافاته، يثأر أوهامه في مذاهب أقدارهم، فيطرد زمن الدين الذي يحيا به الناس ويعيشون، ويزيل العادات التي طالما تمسك بها الناس وألفوها وآلفوها. وذلك بحلول زمن أوهامه وخرافاته.

كانت هذه جملة من الانزياحات الدلالية (الاستبدالية) التي برع الرافعي رحمه الله في إخراجها واكتفينا بها، فظاهرة الانزياح في أسلوب الرافعي من الظواهر الهامة في كتابة المساكين، تميزت فيه لغته أنها لغة مخالفة للكلام العادي والمألوف لأنّ النص الأدبي ينزع إلى تحقيق هويته من خلال الاختلاف عن الخطاب الشائع. والرافعي من الأدباء الذين اقترن اسمهم بالأسلوب العربي المتين لفظاً ومعنى، فاستطاع بمنهجيته في الكتابة وطريقته الفريدة، بتوظيف اللغة على نحو فيه قدر كبير من الإبداع فقد أكثر من استخدام الانزياح الدلالي (الاستبدالي) ويحاول هذا البحث أن يعالج ظاهرة الانزياح عند أدونيس بدراسة الانزياحات الواردة، الاستبدالية والتشبيهية، وكتاب المساكين مكتظ بنوع الرافعي من الانزياحات الاستبدالية؛ من مثل الاستعارة، والتشبيه، وكتاب المساكين مكتظ بالانزياحات الدلالية التي ربما يطول شرحها وبيانها، وبذلك يحق لنا أن نسلم للرافعي بأن أسلوبه متفرد في التعبير والتفكير لا يمكن لأي دارس أن يتهمة بالتقليد إلا عن جهل أو تجاهل، وفي هذا

يقول الأستاذ أحمد حسن الزيات في وحي الرسالة: "إذا قيل لك أن الرافعي قديم الأسلوب في التفكير والتعبير فاحمل ذلك على الحسد الذي لا حيلة فيه، أو على الجهل الذي لا حكم معه، وتستطيع أن تتحدى من تشاء أن يدلك على كاتب يترسم الرافعي مواقع قلمه أو قدمه، وإنما هي شنشنة من ضعاف الملكة وقاصري الأيادي"¹.

المصادر والمراجع:

1. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة مصر، ط السابعة، 1418هـ/1998م، ص 75.
2. أحمد (أبو الحسين) بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الخامس، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 418.
3. أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، المجلد الأول، الطبعة السابعة، مكتبة نخضة مصر بالعجالة، 1962م، ص 439.
4. أحمد درويش، دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، دار غريب للطباعة والنشر - القاهرة، مصر، ص 38.
5. أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م، ص 11.
6. أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 2191/ 2192.
7. أرسطوطاليس، فن الشعر ترجمة ابراهيم جمادة، مكتبة الانجلو المصرية، ص 179.

1 - محمد زرمان، المقال في أدب مصطفى صادق الرافعي، ينظر المرجع، ص 313. أو ينظر: أحمد حسن الزيات، وحي الرسالة، المجلد الأول، الطبعة السابعة، مكتبة نخضة مصر بالعجالة، 1962م، ص 439.

8. جمال الدين الرمادي، مصطفى صادق الرافعي، مجلة دعوة الحق، المملكة المغربية، الرباط، العدد الثالث، السنة الثامنة، رمضان 1384/جانفي 1965م، ص 38.
9. جون كوهين، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، لطبعة الأولى، 1986م، ص 42.
10. دانا عبد اللطيف سليم حمودة، شعرية النثر طوق الحمامة نموذجاً، رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية، اشراف: محمد خليل الخلايلة، قسم اللغة العربية، جامعة الشرق الأوسط، 2012/2011. ص 51.
11. سعاد بولحواش، شعرية الانزياح بين الجرجاني وجون كوهين، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي تخصص نقد أدبي، اشراف محمد زمران، جامعة الحاج لخضر باتنة، سنة 2012/2011، ص 23.
12. سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الشعب الأزدي السجستاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، الجزء السابع، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 2009م، 1430هـ، ص 438.
13. صونيا لوصيف، سارة كرميش، الانزياح الدلالي في الالفاظ العربية (معجم العين نموذجاً)، اشراف يمينة ابن مالک، مذكرة معدة استكمالاً لمتطلبات نيل شهادة ماستر، جامعة منتوري قسنطينة، ماي 2011. ص 26.
14. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ط 03، ص 102.
15. عبد القاهر (أبو بكر) بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، دلائل الاعجاز، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، الطبعة 05، 2004، ص 50/49.
16. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق محمود محمد شاكر، شركة القدس، الناشر دار المدني بجدة، الطبعة الأولى، 1412هـ/1991م، ص 140/139.
17. عمرو بن بحر (أبو عثمان) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، الجزء الرابع، دار الجيل بيروت، لبنان، ص 16.
18. عمرو بن عثمان (أبو بشر) بن قنبر الحارثي بالولاء المعروف بسيبويه، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، 1408هـ، 1988م، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ص 34.
19. كمال نشأت، مصطفى صادق الرافعي، تقديم أبو طالب ريان، مجلة دعوة الحق، المملكة العربية المغربية، الرباط، العدد الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، ربيع الأول 1390هـ/ماي 1970م.

20. محمد بن مكرم بن علي (أبو الفضل) جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، لسان العرب، ج 48، تحقيق: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، ص 4393.
21. محمد زياد بن عمر التكلة، عايش بن سعد الدوسري، مجموع في كشف حقيقة الجزء المفقود (المزعوم) من مصنف عبد الرزاق، دار المحدث، ط1، ربيع الأول 1428هـ الرياض، المملكة العربية السعودية، ص 222.
22. محمد علي الهاشمي، مصطفى صادق الرافعي، إمام الأدب وحجة العرب، مجلة الفيصل عدد خاص بالأديب مصطفى صادق الرافعي، السنة 15، العدد 179، جمادى الأولى 1412هـ، تشرين الثاني، نوفمبر، ديسمبر كانون الأول، 1991م. ص 49.
23. محمود أبو رية، أسلوب الرافعي وطريقته في الكتابة، مجلة الرسالة، العدد 359، 20 مايو 1940، ص 854/853.
24. محمود محمد الطناحي، مقالات الطناحي، صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، القسم الأول، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، 1422هـ/2002م، ص 152.
25. مصطفى صادق الرافعي، تحت راية القرآن، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
26. مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزء الأول، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 2002، ص 07.
27. مصطفى نعمان البدر، الرافعي الكاتب بين المحافظة والتجديد، دار الجليل بيروت، دار عمار، الأردن، ط 01، 1411هـ/1991م، ص 348.
28. النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، د نعمة رحيم العزاوي، منشورات وزارة الثقافة والفنون الجمهورية العراقية _بغداد، 1398هـ _ 1978م، ص 15/12.
29. وفاء أبو الحسن دفع الله، محمد داؤد محمد، الانزياح الدلالي دراسة تطبيقية من خلال نظرية النظم، مجلة العلوم الانسانية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلية اللغات، 2014. ص 206.